شـــاعر . . . !

بقـــلم الأديب كمال رستم

كان قد مضى موهن من الليل ، وهجدت الحركة ، ونامت الكائنات ، وتوارت النجوم وراء ستار الغمام ؛ فعمت العتمة وانبسط رواق الظلام !.

وكان هناك بصيص من نور يتسلل من خصاص نافذة منزل قائم على ناصية الطريق . . .

فى هذا المنزل وفى هذه الغرفة بالذات ؛ كان الشاعر يصغى إلى إحدى القطع الموسيقية تذاع من محطة « صوفيا » وقد غابت أفكاره فى عوالم من خيال ! . . .

— رحمة بشبابك يابنى . ألا تعطى جسدك حظاً من راحة ؟ قالتها أمه فى نغمة حزينة ، وراحت تنظر إليه بعينين قد رشحت فيهما الدموع ! . ولم يشأ أن يجيبها على قالتها وظل يدور على إيقاع الموسيقى وهو شارد الذهن ، تائه النظر كأنما هو غائب عنها فى عالم آخر غير هذا العالم الأرضى ! ...

ولكنه ما عتم أن استنبه إلى وجودها فجأة . فتوقف عن الرقص وقال أشبه ما يكون بالحالم :

— معذرة يا أماه . فإنى لألتمس راحة البدن ، وهدوء الضمير فى الإصغاء إلى هذه الموسيقى الإلهية ؛ فإنها لا تزال تنقلنى على نغماتها السماوية من آفاق إلى آفاق ، حتى ليخيل إلى أننى أفنى فى الوجود المطلق وأغدو ذرة مذعورة فيه ! . . .

وانطلق يدور فى خطوات رتيبة إلا أنها ساذجة فما كان بينها وبين النغم السارى تطابق أو اتفاق ! واستطرد يقول كمن يخاطب شخوصاً غير منظورة :

— أواه يا « أوتربى » ياربة الموسيقى ، أفيضى على كيانى المكدود عوسيقاك العذبة فإنها غذاء روحى ، أنصتى يا أماه إلى هذا اللحن الحالم ... إنه « لوزار » ومن قبل استمعت إلى لحنين أحدهما « لباخ » والآخر « لبيتهوفن » !..

إن الناس هناك فى « صوفيا » ليصحون على هذه الأنغام الخالدة ، وإنهم لينفقون عليها ، فتهدهد آلامهم ، وتحيى فيهم موات الأمل !...

... وتجاوبت فى نفس أمه أصداء الحيرة ، وتكلمت فيها وساوسها فأشفقت على ابنها أن تكون مسته مواس الجنون قالت :

— يابنى نم ، واشفق على نفسك ، فإنك مجهد الحس ، مضعضع البدن !

... وتقدم منها فى وناء ومهل ، وأوسد راحتيه كتفيها وقال وهو يدفعها فى هينة ورفق إلى الباب :

— أحرى بك يا أماه أن تعودى إلى فراشك ، وأن تدعينى وحدى تسبح أفكارى وتنطلق شاعريتى ... إن الشاعر يا أماه لا يعيش لنفسه وإنما يعيش لسواه ! ...

... وشاءت أن تتكلم إلا أن الكلمات ماتت على شفتيها ...

وصلت فيها دمعها يفصح عما استسر فى نفسها من ألم وكمد ، ووجدت أنه لامعدى لها من أن تغادره ، فمضت إلى حجرتها ...

وبرقت فى ذهنها ، وهى مسترخية على فراشها ، صورة ابنها يوم أن كان لا يزال فى المهد طفلا غريراً . وذكرت أنها أملت وقتها أن يكون لها فى المستقبل أمناً من الزمان ... ولكن الفتى ما كاد أن يشب عن الطوق حتى صدف عن الدرس واجتوى المدرسة إذ أنس فى نفسه رغبة مشبوبة فى قرض الشعر...

وبدا لأمه أنه لا غناء فى كل الجهود التى بذلتها ليعود ابنها إلى الدرس . وقد كبر فى وهمه أنه شاعر ... فغدا يتغنى بشعره الناس ، وغدا يتردد اسمه على الأفواه ويغدو ذكره ملء الأسماع .

وكانت أمه تنصت إلى تلك الكلمات وإلى سواها ، وتبكى فى ابنها حظها العاثر . فإن أقرانه قد أصلوا الدرس ، وما كادوا يحصلون على درجاتهم العلمية حتى تلقفتهم الوظائف الممتازة . . . وكثيراً ما كان يستجلى فى عينيها مايدور برأسها فكان يقول لنفسه :

— هذه أمى تبكينى حياً . لتبك اليوم ؛ فإنها لن تلبث أن تضحك طويلا حينما آخذ مكانى بين فحول الشعراء ، وكبار الأدباء

فإنهم ليقولون فى الأمثال الفرائد . إن من يضحك كثيراً لهو الذى يضحك أخيراً ...

... وبقى الفتى فى غرفته يدور على نغمات الوسيقى . وقد شبه له أنه يستند إلى صدر فتاه ناهد فى دورة راقصة . فكان يحتوى فراغا — يمثلها — بين ذراعيه ، حتى إذا ما انتهت الرقصة قال فى صوت يفيض رقة وحناناً :

— غداً نلتقى هنا يا غرامى فى نفس الموعد . قال اللقاء ...

وراحت ذراعاه تطوقانها ، وسمت شفتاه إلى أن التقتا ، فى الخيال — بشفتيها فى قبلة طويلة حالمة ...

... إن أقسى اللحظات التى تمر بإنسان لهى التى يستشعر فيها أنه محروم من الحب . فإنه فى أعقاب هذا الشعور بالحرمان ، يجفل من الناس . ويعاف صحبتهم ، وينطوى على نفسه ويستوحد ولم تنشب هذه الحال السالبة أن تتحقق فى أحلام اليقظة ؛ فيكبر فى وهمه أنه قد أحبته فتاة وأنها صارت له خليصة فهى تقابله — فى الخيال — فى غفلة من الناس ، وتبثه لواعج الحب ، وتهبه كل ما أنتكرته عليه حياة الناس . وإذا ما اختلفت على إنسان هذه الحال أدت به إلى جنون ...

... وما كادت صورة الفتاة تبرح خيال الشاعر حتى جلس إلى مكتبه وغيب يده فى درج من أدراجه ، وأخرج قرطاساً وقلماً وسطر بضع كلمات أنشأ مطلعها بصوت عال :

« اللحن الإلهى » ... يا له من عنوان !

وأكب على القرطاس يثبت ما عن له ، حتى إذا ما فرغ من كتابته نهض إلى النافذة ، وفتحها ووقف وراءها .

وراحت أنسام الفجر الندية تصافح وجهه ، وتاهت نظراته فى الفضاء والمحيط ثم ارتدت إليه مذعورة ؛ فأغلق النافذة ، وتراجع إلى فراشه ، وتطرح عليه ، وأسلم عينيه لإغفاءة طويلة معسولة ...

كان محمد أو الأستاذ محمد كما يحب أن يدعوه الناس ، واحداً من هؤلاء الشبان الذين يسلمون أنفسهم لقراءات غير منظمة ، وكان قد انقطع عن المدرسة فى أولى مراحلها فاعتمد على خبرته الضئيلة فى اختيار لون الثقافة الذى يتفق ومزاجه . فلم يفد شيئاً .

وكان يبعث بمحاولاته الساذجة إلى الصحف والمجلات فكانوا — كما هو منتظر — يغفلونها ولا ينشرونها . فانعكست هذه الحال السالبة على نفسه ؛ فاستشعر لأصحاب الصحف والمحررين على السواء كراهة مرة .. وصور له الوهم أنهم يغارون منه ، وينفسون عليه موهبته الخالقة ...

وكثيراً ما كان يمضى فى الطريق محتضناً أفكاره ، حتى إذا ما صادف صديقاً لم يشأ أن يتركه قبل أن يلقى عليه إحدى قصائده ؛ وكانت خبراته بالدورات العاطفية التى تختلف على الناس منعدمة . فكان يقع على الواحد من أصدقائه وهو مرح الصدر ، غانم الخاطر يريد أن يسمعه إحدى قصائده . فيعتذر صاحبه من عدم إمكانه سماعها . فينتابه من ذلك هم كبير ويقول فى نفسه :

— إن الناس عيت عقولهم عن فهم أشعارى ، وفيها تلك الالتماعات الذهنية التى لا تنقاد إلا لذهن جبار ! وإنى عهدتهم يتهافتون على ذلك اللون الرخيص من الأدب الذى تطالعهم به الصحف والمجلات ... أما أنت يا محمد ؛ فإن فى عنقك رسالة ينبغى أن تؤديها ، وإن أصحاب الرسالات ليلاقون من عنت الناس وإجحافهم مالا قبل لغيرهم به . فلتثابر وإنك واصل بإذن الله ...

... ونهض من فراشه فى رأد الضحى .. وأمر يده بين الوسائد وأخرج القرطاس الذى سطر عليه قصيدته « اللحن الإلهى » ونادى اخته ، فما إن أقبلت حتى قال لها :

— اجلسى فسألقى عليك قصيدتى الجديدة «اللحن الإلهى»

... وكانت الفتاة قد تعياها الجهد من تدبير البيت . وكان لا يزال أمامها عمل شاق متواصل . فأجابته فى لهجة يشيع فيها الغضب المستور : إننى جد متعبة ولا قبل لى بسماع قصائدك

ومضت عنه إلى طهى الطعام وتنظيف الصحاف . وبقى هو فى فراشه بعض الوقت تتردد الحسرة بين جنبيه وتمتم

— حتى أنت ياشقيقتى تبالغين فى تحقير شعرى وامتهانه ...

... وكانوا قد أعدوا له طعام الإفطار . فما قاربه ، بل ارتدى ملابسه ، وانطلق إلى الطريق كمن ركبه الشيطان . وكان النهار قد انتصف ، وغامت السماء ، وآذنت بإمطار ...

ودرج فى الطريق وهو ذاهل لا يدرى أين تقوده قدماه ...

ونسى نفسه فراح يتغنى بقصيدته «اللحن الإلهي» . وخيل إليه أن الطبيعة أطرقت تنصت إليه ! لقد عدم فى الناس من يستمع إليه . فليحك إلى الطبيعة شعره وليبثها آلامه ... الطبيعة ...

إنها أخته الحليمة ، فليس فيها مكر الناس وليس فيها خبثهم !

رهطل المطر مدراراً بينما تابع هو طريقه غير حافل حتى لاح له مقهى على رجع البصر تخف إليه !

وتهالك على المقعد فى إعياء ، وراح يرقب حبات البرد وهى تساقط على الأرض فى ثورة وغضب ...

وعن له أن يستعرض — وهو جالس — رحلة حياته فهاله أنه احتمل صنوف الهوان والذل ، والعسف والجور !

وأحس بالحزن ينوش صدره ، والألم يهصر قلبه ... وتزاحمت الصور فى رأسه وبرزت من بينها صورة أمه تتكلم فيها نظراتها بأن آمالها خابت فيه

ثم ومضت فى ذهنه لحظات السعادة الموهوبة التى استشعرها مرة يتيمة فى هدأة حب عابر . فأغمض عينيه على الذكرى الحبيبة يلتذ مقامها فما أسرع أن خبت فى الماضى البعيد !

وجثم على صدره ألم الحرمان ... الحرمان المروع ... وعندئذ جرت على شفتيه بسمة مريرة . وهانت لديه الحياة ، وود لو عاجله الموت ، وتمتم :

— إن من الموهوبين من لم يعرف الناس أقدارهم إلا بعد مماتهم ، وأنهم كانوا فى حياتهم مضطهدين ، محرومين . فلعلك أنت يا محمد أن يكتب لك الخلود بعد وفاتك ...

... وهدأ عند هذه الخاطرة وسكن إليها ، وأخرج القرطاس والقلم من جيبه وسطر عنواناً لقصيدة جديدة ... «الشاعر الخالد»

وجرى قلمه على الصفحة البيضاء كأنه ريشة رسام مفتن . ولما فرغ من تدوين أشعاره ونهض كانت حمرة الشفق قد انتشرت فى السماء ...

وكانت نظراته وهو يدرج فى الطريق عائداً إلى بيته حلقة مذعورة لا تثبت على شىء !

وكان ذهنه فى مثل نظراته من الغموض والشرود فراح يرق بشتى ألوان التفكير .

وانطلق يضحك فى أعمق نفسه ، من وجوده هو ، بل من وجود الناس أجمعين . فما هى الحكمة الكبرى فى خلق هذه الجموع الآدمية ؟ . . . أليبقوا سنوات هى فى عمر الزمان لحظات قصار ، ثم تبتلعهم أمهم الأرض . وكأنهم لم يدرجوا عليها يوماً .

بدا له كل شىء على حقيقته ، وهم وقبض الريح . ماذا جناه من حياته ؟ لا شىء ! .

ولد ، وتألم ، ولن يلبث أن يمضى على الدنيا كآلاف غيره مشيعاً بحزن مصطنع ، وألم مفتعل ! ...

فمن العدم أقبل .. وإلى العدم يعود . وتبقى ذكراه بين الناس تبقى رسالته التى ضمنها أشعاره تلك التى لم يقدر لأحد أن يطلع عليها حتى اليوم . من يدرى ؟...

لعل أحداً أن يقف عليها ، ولعل كاتباً منصفاً أن يكتب عنه ويسمه « بالشاعر العظيم » ...

وبلغ منزله خائراً مكدوداً فصافحه وجه أمه يشيع فيه الألم كما يعهد به ! . ولما قدمت له الطعام . تناوله بشهوة مفهومة . إذ كان جائعاً ! ...

ودلف إلى حجرته ، وأغلق الباب وراءه كما ألف أن يفعل كل مساء وتهالك على المقعد فى تراخى بدن مجهد ، وأخرج قصيدته « الشاعر الخالد » من جيبه وراح يستعيد قراءتها !..

وأدار مفتاح المذياع فتناهت إلى مسمعه نغمات موسيقى عذبة حنون وشالت به أفكاره إلى السماوات العلا وهو فى حال من خدر الحس وسكرة النفس ...

... ولما مضى موهن من الليل ، وهجدت الحركة ، ونامت الكائنات ؛ تسلل الشاعر فى خطوات مخنوقة إلى غرفة أمه واستملى منها ومن أخته نظرات طويلة حانية ...

ولما قفل راجعاً إلى غرفته كانت تلتمع فى عينيه دمعات حرى وامتدت يده المرتعشة فى صلابة وعزم إلى زجاجة « الفيرونال » التى كانت أمه تتعاطى أقراصها لتطرد عنها السهر والأرق ، وأفرغ حباتها فى جوفه واحدة بعد الأخرى ...

وبينما كان اللحن ينساب فى هدأة الليل حزيناً مولولا ، كان الشاعر قد خارت قواه وهوى على أرض الغرفة ؛ جثة لا حراك بها !...

كمال ... تم

سكك حديد الحكومة المصرية

يتشرف المدير العام بإعلان الجمهور بأنه تقرر ابتداء من يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٤٧ الآتى .

أولا — رفع القيود الموضوعة الآن على جميع وسائل النقل من ناحية سير القطارات ومحطات وقوفها فى جميع أنحاء القطر المصرى .

ثانياً — ملاحظة عدم صرف تذكرة لأى راكب من مصر أو محطات الوجه البحرى إلى محطات الوجه القبلى إلا لحامل شهادة تطعيم ضد الكوليرا بالصورة الشخصية معتمدة من مكتب الصحة المختص وأورنيك مراقبة صحية رقم ٢٥ صحة .

ثالثاً — الانتقال بطريق السكة الحديد داخل مديريتى جرجا وقنا لا يباح إلا للحاصلين على شهادة تطعيم قانونية واورنيك ٢٥ صحه .

رابعاً — القطارات التى تسير الآن بالوجه القبلى تقف بجميع محطات وقوفها المقررة بجدول السير ابتداء من يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

خامساً — القطارات التى تسير حالياً يستمر مسيرها كجداولها وسيعلن بعد عن القطارات التى سيعاد سيرها تدريجياً .

سادساً — يعاد صرف تذاكر المقابلة بالمحطات المقفولة ابتداء من التاريخ المذكور .

مطبعة الرسالة